الإلياذة لهوميروس

بقلم
الدكتور محمد صقر خفاجه
وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة ورئيس قسم الدراسات القديمة

حياته وعصره :

ما زالت حياة هوميروس أسطورة كلما حاول العلماء فهمها تاهوا فى تفاصيلها ، وكلما أرادوا دراستها تشعبت أبحاثهم ، وتعددت آراؤهم ، ولم يتفقوا على شئ . ومع أنهم كتبوا عن شاعر الإلياذة من المؤلفات مالم يكتبوه عن أديب آخر فإن أبحاثهم عن حياته ونشأته مازالت مملوءة بالفروض والاحتمالات .

فأين ولد هوميروس ؟ ومتى ؟ ومن أى سلالة انحدر ؟ هل هو سليل الآلهة ؟ ابن بوسيدون رب البحار ؟ أم أبوللون ، إله الشعر والغناء ؟ وهل كانت أمه ربة من ربات الشعر أم حورية من حوريات الماء أم امرأة كسائر الأمهات ؟ وهل كان ضريراً لا يبصر ؟ أو كان مبصراً فى أوائل أيامه ثم فقد بصره؟ أو كان ضعيف البصر طول حياته ؟ وأين قضى أيامه وكيف ؟ وهل فضل منطقة من بلاد اليونان وأقام بها أم طاف فى أرجائها وقصد كثيراً من مدنها ثم عاد إلى مدينة أزمير (سمورنا) ونظم الإلياذة والأوديسا ، وبعض القصائد الهزلية مثل « الغبى المغرور » (margites) ، « حرب الضفادع » (Batrachomachia) ، « حرب الفيران » (muomachia) ؟

وبأى أرض مات ؟ هل مات بجزيرة إيوس أم فى مكان غيرها ؟

هذه أسئلة لانعرف لها جواباً صحيحاً لأن هوميروس فى أشعاره لزم الصمت ولم يذكر عن نفسه شيئاً ، ولم يحدثنا عن نشأته كما فعل غيره من شعراء زمانه ، فأخذ العلماء ينسجون حوله الروايات ويحيكون القصص وكثرت هذه وتلك ، واختلفت اختلافاً شديداً فيما تضمنته من سير وأنباء ، ولكن مهما تضاربت آراء النقاد القدماء ، فإننا نستطيع أن نستخلص منها شيئاً عن حياة هوميروس ونشأته . وهـذه أهم الحقائق التى يمكن أن نستنتجها من المعلومات التى أجمعوا عليها .

يبدو أن هوميروس ولد من أبوين مغمورين فى إحدى المدن الأيونية[1] بآسيا الصغرى ، ثم أظهر فى

(١) لم توجد مدينة فى العالم القديم إلا وادعت أن هوميروس منها ؛ وهذه أهم الروايات بهذا الصدد . يقول الشاعر أنتيباتروس الصيدى (القرن الأول ق. م) « إنك ، يا هوميروس ، من كولوفون أو من سمورنا (أزمير) أو من خيوس أو من ثساليا أو من جزيرة إيوس . لكن أبوللون أنبأنى بأنك ولدت فوق ذرى الأوليوس وأنك ابن سيد الآلهة ، وأمك ربة من ربات الشعر » . ولقد أضاف الناقد سويداس إلى قائمة المدن السابقة أسماء أخرى أهمها طروادة ، مصر ، روما ، رودس .

صباه ميلا لسماع القصائد وحفظ الأناشيد ، وفى سن الشباب بدأ يتغنى بأشعاره فلم ينل إعجاب سامعيه الذين أعرضوا عنه ولم يشجعوه ، فذاق مرارة الفقر . وعندما اتقدت قريحته ، ونبغ فى إنشاد الشعر ، ذاع صيته وتسابق الأثرياء إلى دعوته للإقامة فى قصورهم والتغنى بأسلافهم ، وتنافست المدن فى إجلاله وتكريمه لما فى أشعاره من تمجيد لأبطالها وإشادة بماضيها . وهكذا أتيحت له فرصة لزيارة كثير من البلدان ، ودراسة معتقداتها والوقوف على أحوالها ؛ ومعرفة عادات أهلها ، فكانت مصدراً للمعلومات التى تفيض بها قصائده .

ولعل ضخامة إنتاجه وطول ملاحمه يحملنا على الاعتقاد بأنه عاش زمناً طويلا ومات فى شيخوخته بجزيرة إيوس التى أجمعت الروايات على أنها كانت تفتخر بوجود قبره فيها .

أما عن عصره ، فقد ذهب القدماء فيه ثلاثة مذاهب . فقال هيكاتيوس ، أول مؤرخى اليونان ، بأن هوميروس عاصر الحرب الطروادية التى وصف حوادثها أى أنه ازدهر فى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد . ولكن هيرودوت خالفه فى ذلك ، وأكد أن شاعر الإلياذة ظهر قبله بما لا يزيد عن أربعة قرون أى فى منتصف القرن التاسع ق. م ، ثم جاء السفسطائى المشهور ثيوبوميوس (القرن الرابع ق.م) وجعله معاصراً للشاعر الهجائى أرخيلوخوس الذى ذاعت شهرته فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد . وإزاء هذا الاختلاف كان من الطبيعى أن ينقسم المحدثون على أنفسهم وأن يعتنق كل منهم رأيا من الآراء الثلاثة ، ويعمل على تأييده فى ضوء الاكتشافات الحديثة .

لكن آخر الأبحاث وأدقها أيدت رأى هيرودوت . فلغة هوميروس هى لغة القرن التاسع والثامن ق . م وليست لغة العصر الموكينى التى كانت ضاربة فى القدم ، وكانت تحتوى كلمات عتيقة وألفاظاً نادرة ، وعبارات غير مألوفة ، ولا هى لغة الشعر الغنائى التى كانت تفيض حيوية وتمتلئ حركة لتوافق الألحان الموسيقية ، وتعبر عن مختلف العواطف الجياشة والانفعالات القوية .

عاش هوميروس إذن فى أواخر القرن التاسع ق.م بعد انتهاء حرب طروادة وقبل ازدهار الشعر الغنائى بقرون ، فاعتمد فى وصفه لحوادث هذه المعركة على الروايات التى سمعها ، والآثار التى شاهدها فى ربوع اليونان ، ثم وصف هذه الأحداث فى لوحات تصور المجتمع الذى عاش فيه ، والحضارة التى عاصرها . فسجل لليونان حياتهم فيما بين القرن الثانى عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد . وعرضها فى قالب قصصى وأسلوب روائى يجمع بين الحقيقة والخيال .

منزلة هوميروس وتأثيره :

ليس بكثير ، إذن ، على ناظم هذه الأشعار أن يعتبره اليونان ابداية والنهاية وزميل الصبا والشباب والشيخوخة . لا نستطيع مفارقته مطلقاً ، نتغذى بأشعاره كما يتغذى الرضيع بلبن أمه : وإذا شغلنا عنه ، شعرنا بظمأ لا يمكن إطفاؤه إلا بالرجوع إليه » .

لقد كان هوميروس لليونان معلماً ورسولا ، جمع شملهم وتغنى بتاريخ أسلافهم ، فبعث نهضتهم وخلق منهم أمة قوية يؤمنون بدين واحد ويستخدمون لغة واحدة ، يحتفلون بأعياد قومية جامعة ، ويشتركون فى مباريات عامة شاملة .

قلده شعراء الملاحم اليونانية تقليداً أعمى ، فاستخدموا ألفاظه ، ورددوا عباراته ، وحاكوا أسلوبه ، ونقلوا أفكاره ، ولكنهم ، كما رأينا ، لم ينظموا ملحمة واحدة فى روعة الإلياذة . وجاء الشعراء الغنائيون واستعملوا صفاته وكناياته وتغنوا بآلهته ، وأعجبوا بقصائده إعجاباً فائقاً ، خاصة بنداروس ، زعيم الشعر الغنائى ، الذى تغنى بالإلياذة ورفعها إلى السماء . أما شعراء المسرح فقد اعترف أستاذهم

أيسخولوس « بأن مآسيه كانت فتاتاً من موائد هوميروس الحافلة » . وشهد أفلاطون بأن شاعرنا كان أحكم الحكماء وأنه معلم اليونان الأول ، ولقبه أرسطو بأمير الشعراء وأثنى عليه ثناء عاطراً فى كتابه فن الشعر .

ولم يكن الاهتمام بهوميروس قاصراً على الأدباء والعلماء ، ولكن فاقهم فى ذلك الملوك والأمراء . أعجب به الإسكندر إعجاباً شديداً حتى إن الإلياذة أصحبت كتابه المفضل الذى لا يفارقه وكان يحتفظ بنسخة منها فى صندوق مرصع بالجواهر . واقتفى البطالسة أثره فى تمجيد الشاعر ، فاهتم بطليموس الثانى بجمع أشعاره ، وأمر بطليموس الرابع بعبادته وتأليهه

وكانت تلك أبلغ آيات التمجيد لمن أصبح عند اليونان رمزاً للتفوق والنبوغ وصار اسمه لقباً لكل عبقرى من عباقرتهم ، فأفلاطون سمى هوميروس الفلسفة ، وسنوفوكليس هوميروس الشعر التمثيلى .

وكان هوميروس نموذجاً لشعراء الرومان أيضاً ، بدءوا بترجمته إلى لغتهم واعتبروا ملاحمه أول عمل أدبى يجب تلاوته . ولم يبدأ القرن الأول قبل الميلاد حتى أصبح تأثير هوميروس شاملا فى الأدب اللاتينى ، واضحاً فى جميع المؤلفات . ولكنه يتضح وضوحاً تاماً فى شعر ثلاثة من أعظم أدباء الرومان هم ڤرجيل وهوراس وأوڤيد (١) . ولقد أصبح هوميروس ، فى عصر أوغسطس ، معروفاً للجميع ، كان الطلاب يحفظونه ويقتبسون منه فقرات فى كتاباتهم ، وبدأ الشعراء يكثرون من الإشارة إليه فى قصائدهم ، وأخذ النقاد ينصحون بتلاوة أشعاره ويحضون بتلقينها فى المدارس المختلفة .

وزالت دولة الرومان وظهرت المسيحية وتبعتها النهضة الأوروبية ولم تستطع القرون العديدة أن تضعف من تأثير هوميروس لأن شعره بقى يحتل أسمى منزلة حتى فى عصور الجهالة والظلمة التى انقرضت فيها اللغة اليونانية ، فكان الناس يتلونه فى الترجمات اللاتينية ويعجبون بأفكاره ، وبذلك لم تنقطع صلتهم به ولم يتوقف تأثيره عليهم . ومنذ بداية القرن الرابع عشر بدأ علماء إيطاليا وأدباؤها يرجعون من جديد إلى المخطوطات اليونانية لملاحم هوميروس ، ويرجع الفضل إلى پترارك وبوكاشيو فى تشجيع الإيطاليين على تلاوة الإلياذة والأوديسا فى اللغة الأصلية . ولم تكن إنجلترا أقل اهتماماً بدراسة هوميروس ، ولم يكن أدباؤها أقل تأثراً بشعره . فلقد صوره شوسر فى قصائده وتغنى بأشعاره ومجد عبقريته ، ولقد اعترف ملتون بأنه اقتفى أثر هوميروس وقلده ، واستخدم تشبيهاته واستعمل صفاته ، أما نقاد إنجلترا أمثال دريدن وپوپ فكانوا من عشاق هوميروس ، قضوا كل حياتهم فى نقد أشعاره وإظهار محاسنها وترجمتها ترجمة رائعة جديرة بالأصل اليونانى ، وما حدث فى إنجلترا ، حدث فى فرنسا وألمانيا .

فأدباء هذه وتلك عكفوا على دراسة الإلياذة وترجمتها ، واستلهموا منها كثيراً من موضوعات أعمالهم ، بل إن أدباء أوروبا ما زالوا ينهلون منه ويعتبرونه المصدر الأول لإلهامهم ، وليس ذلك بعجيب لأن نقاد أوروبا أجمعوا وما زالوا يجمعون على أن الإلياذة والأوديسا هما أروع ما جادت به قريحة اليونان .

المشكلة الهومرية :

أشرنا من قبل إلى أن نقاد اليونان منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد كانوا ينسبون إلى هوميروس عدداً من القصائد غير الإلياذة والأوديسا . لكن شعراء الإسكندرية وعلماءها عكفوا على دراسة الأشعار الهومرية وتحقيقها وقرروا ، بعد بحث دقيق ، أن شاعرنا لم ينظم إلا الملحمتين

(١) انظر : ملحمة الإنيادة لفرجيل ، وفن الشعر لهوراس ، والتغيرات لأوفيد .

العظيمتين ولم يخرج على هذا الإجماع إلا فئة قليلة[1] كانت تدعى بأن هوميروس لم ينظم إلا الإلياذة ، وأن الأوديسا كانت من نظم شاعر – أو شعراء – غيره . ولكن يظهر أن هذه الجماعة لم تستطع تأييد دعواها بأدلة قوية فكان من السهل على أريستارخوس ، أشهر نقاد الإسكندرية ، تفتيد رأيها وإخماد صوتها، فلم يعد يسمع به أحد فى العالم القديم .

إلا أن إجماع القدماء لم يمنع المحدثين من مخالفتهم فى الرأى ، فاعتمدوا على بعض العبارات المتناثرة فى مؤلفات اليونان ليؤيدوا نظرية هؤلاء الذين سبق أن نادوا بفصل الإلياذة عن الأوديسا ، وما إن تجددت هذه الدعوى فى القرن السادس عشر حتى انقسم المحدثون على أنفسهم وتعددت مدارسهم وتضاربت آراؤهم ، فظهرت فى الأدب اليونانى ، مشكلة خطيرة ، كانت ومازالت موضع أبحاث عديدة ، وموضوع كتب بأكملها ، وأصبحت تعرف فى هذا الأدب بالمشكلة الهومرية .

ولقد قامت هذه المشكلة على اعتراضين رئيسيين . أولهما أنه ليس من الممكن أن يبدأ الأدب اليونانى بهاتين الملحمتين الرائعتين ، وليس من المعقول أن تخرجا من العدم دون أن تسبقهما ملاحم أخرى رجع إليها هوميروس وأفاد منها فى نظم أشعاره : وثانيهما أن خصائص كل من الملحمتين تدل على أنهما عملان مختلفان ألفهما شعراء مختلفون وأن كلا منهما وحدة مستقلة رغم ماتضمنه من مقطوعات مفككة وفقرات متناقضة . ومن هنا بدأ المحدثون دراستهم ، وأخذوا فى البحث عن مختلف الأدلة يدعمون بها رأيهم .

ويعتبر ڤولف (Wolf) أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة هلّ الألمانية أول من اهتم بدراسة هوميروس دراسة علمية دقيقة وأول من خلق المشكلة الهومرية فقد نشر فى عام ١٧٩٥ كتابه القيم المعروف باسم « مقدمة فى دراسة هوميروس (Prolegomena ad Homerum) قرر فيه أن الأشعار الهومرية نظمت فى القرن العاشر قبل الميلاد عندما لم تكن الكتابة معروفة أو على الأقل غير مألوفة فى تدوين الأعمال الأدبية ثم انتقلت هذه الأشعار من جيل إلى آخر عن طريق الرواية الشفوية واعتراها بعض التغييرات ولم تدون إلا فى أيام الطاغية المستنير پيسستراتوس (٦ ق . م) الذى أمر النقاد بتحقيقها وتصحيحها ، فقاموا بما أمروا به وأدخلوا عليها كثيراً من التعديلات ولذلك يضيف ڤولف قائلا : إن الوحدة الفنية فى الملحمتين لم تكن موجودة منذ نشأتهما ، إنما اكتملت تدريجيا على مر الزمن بفضل الإضافات والتعديلات التى أدخلت عليهما ، وينتهى من ذلك إلى أن الوحدة الفنية أظهر فى الأوديسا منها فى الإلياذة ، وأن الملحمتين ليستا من نظم شاعر واحد ، وأنهما أول الأمر لم تكونا فى صورتهما الحالية بل كانتا أقصر من ذلك بكثير ثم أخذ المنشدون يضيفون إليهما مقطوعات جديدة حتى بلغتا هذا الطول .

تلك خلاصة نظرية ڤولف التى لقيت عندظهورها تأييداً شديداً من علماء الألمان وأدبائهم ، ولكن سرعان ما اختلفوا فيما بينهم فى التفاصيل بما أدى إلى إضعاف هذه النظرية التى لم تستطع الصمود أيضاً أمام نتائج الكشوف الأثرية الأخيرة . فقد ثبت منها أن الكتابة كانت معروفة ومستعملة على أيام هوميروس ، بل قبله ، وهكذا تهدم الجانب الأساسى فى الأدلة الخارجية التى بنى عليها ڤولف نظريته .

أما عن الأدلة الداخلية التى اعتمد عليها – هو وأتباعه – لدعم آرائه ، فقد دحضها الأستاذ البلجيكى سڤيرنس (Severyns) الذى عكف مايقرب من ربع قرن ، على دراسة الإلياذة والأوديسا وبحث

---

(١) أشهر هؤلاء (كسينون وهيلانكوس) وقد عرفت هذه الفئة عند اليونان بالفاصلين (Chorizntes) أى الذى يفصلون الإلياذة عن الأوديسا .

المشكلات التاريخيـــة والدينية والاجتماعية واللغوية كافة مما يتصل بهما ، ونجـــح فى أن أثبت أن كل مايبدو فى الملحمتين من تضارب أو تناقض إنما هو تضارب ظاهرى لأن هوميروس لم يكن مؤرخاً أو جغرافياً أو عالماً لغوياً ، بل كان شاعراً من حقه ألا يتقيد بالحقائق . وبهذه الطريقة بين خطأ ڤولف وتلاميذه ، ونقد مزاعمهم ووصل إلى أن هوميروس وحده نظم الإلياذة والأوديسا فى منتصف القرن للتاسع قبل الميلاد (١) .

الإليـاذة

تدور الإلياذة حول أحداث الحرب الطروادية التى دارت رحاها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، لكن هذا لا يعنى أنها ملحمة حربية كما يعتقد الكثيرون فهوميروس لم يصف لنا هذه الحرب التى دامت عشر سنوات وامتلأت بالأهوال والخطوب إنما اكتفى بأن يتغنى بأحداث الشهرين الأخرين من العام العاشر ، فنظم الإلياذة ، ملحمة الخلود وقصيدة الزمان ، وتتكون من خمسة عشر ألفاً وخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتاً ، قسمها علماء الإسكندرية إلى أربع وعشرين أنشودة ، بدأها هوميروس بالدعاء لربات الشعر ليلهمنه الشدو والغناء ، ثم أخـــذ فى سرد قصته قائلا :

ذات يوم هاجم اليونان قرية طروادية وسبوا نساءها ، ومن بينهن خروسيس الجميلة ، ابنة كاهن أپوللون ، فأعجب بها أجامنون وأخذها من نصيبه ، وحزن أبوها حزناً شـــديداً ، فتوجه إلى معسكر اليونان وتقدم نحو رئيسه وتوسل به قائلا « مولاى ! إنى أدعو لك بالنصر ، وأصلى من أجلك ، وأقدم لك ما أملك فداء لفلذة كبدى ، فارحمنى وردها إلىّ ». ولكن أجامنون نهره ورده خائب الرجاء ، فعاد إلى قريته يبكى ابنته ويدعو أپوللون أن ينتقم له من هذا الملك المتجبر ، واستجاب الإله لدعائه ، وأنزل على اليونان طاعوناً يجتاح جنودهم وخيلهم ، واستمر الوباء تسعة أيام عاصفة تنذر بالفناء ، عندئذ اضطر أخليوس إلى دعوة مجلس الجيش ، فأجمع القادة على أن يذهب كالخاس ويســـأل الأرباب لتكشف له أسباب هذه الغمة ، وعاد الكاهن وقال « الويل لنا إن لم نرد خروسيس لأبيها ، إن الآلهة تأمر بردها فوراً إرضاء لأپوللون ، فيجب علينا أن نبتهل إليه ، ونسترضيه ليرفع مقته وغضبه عنا . فنهض أخيليوس وأرسل كلمة الحق مدوية وأصر على إرجاع الفتاة لأبيها ، فثار أجامنون فى وجه البطل العظيم ونشبت بينهما معركة كلامية ، وهمّ أخيليوس بأن يغمد سيفه فى صدر الملك الذى وافق على رد خروسيس إذا تنـــازل أخيليوس عن فتاته برسيس ، وعندئذ هبطت أثينا من السماء ونصحت البطل بأن يتخلى عن حبيبته لهذا القائد الأنانى ، واستجاب البطل لنصيحتها وأقسم فى نفس الوقت بأنه لن يشترك فى الحرب ولن يسمح لجنوده البواسل بخوض معاركها . وجلس أخيليوس فى خيمته حزيناً كئيباً ونادى أمه ثيتس لتأتى وتسمع شكواه ، فأسرعت إليه وحدثها عن الإهانة التى لحقته ، ثم خفت لمقابلة زيوس وأبلغته الخبر فوعدها رب السموات والأرض بأنه ســـيذيق أجامنون وجنوده عذاباً أليما تكفيراً عما أصاب ولدها من شر وأذى .

وتحدثنا الشاعر فى الأنشودة الثانية بأن كبير الآلهة أرسل إلى أجا ممنون إله الأحلام وهو يغط فى

---

(١) تعتبر أبحاث هذا الأستاذ المعاصر أحدث وأقوم ما ظهر من مؤلفات علمية دقيقة عن هوميروس وأشعاره ، لذلك نجدها جديرة بالذكر ليرجع إليها من يريد مزيداً من التفاصيل عن المشكلة الهومورية : أنظر : 1) Severyns (A)

1) Homère, le cadre historique, 1944.
2) Le poète et son œuvre, 1946.
3) Homère, l'artiste, 1948.

نومه ليحضه على مهاجمة طروادة فوراً ويبشره بالنصر المبين ، فلما استيقظ القائد الأعلى تحدث إلى القادة وأخبرهم برؤياه الكاذبة فصدقوها ، ثم وقف منهم نستور خطيباً ليشحذ عزائمهم ، لكن أجا ممنون أراد أن يعرف رأى جنوده قبل المعركة ، فنهض وهتف فيهم قائلا « هلموا أغمدوا سيوفكم ، ولنعقد مع الطرواديين هدنة ، فلتنته هذه الحرب ولنعد إلى ديارنا » فما كاد ينتهى من إلقاء كلمته حتى طار الجنود فرحاً ، وعلا هتافهم يؤكدون رغبتهم فى الرحيل بعد الغياب الذى أنهك قواهم ، وأفنى شبابهم ؛ ولكن كيف تقف المعارك وأثينا لا تريد ذلك فسرعان ما هبطت من السماء وتجلت أمام أودوسيوس وقالت له « إياك أن تنخدع بكلام أجا ممنون ، إنه يريد أن يسبر عزائمكم ، فهيا انفخ من روحك فى الجند وردهم إلى صوابهم وأقنعهم بالبقاء » . وعندئذ انطلق ملك إيثاكا بين القادة والجند وحثهم على التضحية ، ونجح فى تحقيق رغبة أثينا ، فاستمرت الحرب وطال القتال ، فيسهب الشاعر فى وصف المعارك التى تتأرجح فيها الكفتان أحياناً ، وترجح فيها كفة الطرواديين أحياناً أخرى ، فيثوب اليونان إلى رشدهم ويدركون أنه لو كان أخيليوس بينهم لما غلبوا على أمرهم فيوصى نستور بمصالحة البطل ويطلب إلى أجا ممنون استرضاءه ، ويستجيب القائد العام لهذا الطلب ويرسله مع أودوسيوس وآخرين إلى خيمة البطل ليعرضوا عليه صلحاً كريماً ويسألوه الصفح والغفران ولكنه يثور لكرامته ويرفض الاعتذار ويردهم خائبين. بعدئذ يعود الشاعر بنا إلى ساحة الوغى حيث نرى مئات القتلى من الإغريق الذين أصابهم اليأس بعد أن رفض أخيليوس العودة إلى القتال ، ويحاول باتروكلوس إقناع صديقه الحميم ، أخيليوس ، بأن يغفر الإساءة ، وينزل إلى المعركة ليدفع عن بنى وطنه البلاء ، لكن البطل لا يستجيب لنداء صديقه ، فيكتفى بأن يسمح له بأخذ ما يريد من قوة وعتاد ، فيذهب باتروكلوس فى الأنشودة السادسة عشرة لتخليص الإغريق من الموت الذى يلاحقهم . وينتصر صديق أخيليوس أول الأمر ويختال بانتصاره ويصر على ملاقاة هكتور ، بطل طروادة ، ويسعى إليه ، لكن هكتور يرسل إلى رأسه رمحاً قاتلا ، فيسقط المسكين مضرجاً بدمه . ويسمع أخيليوس بالخبر ، فيرسل صرخات مدوية كادت تزلزل قلوب الطرواديين وتملؤهم ذعراً ، وطفق يجوب الساحة بحثاً عن جثة حبيبه ، فلما وقع عليها بصره ، بكى ما شاء له البكاء ، ثم رثى صديقه بكلمة مؤثرة وأمر بغسل الجثة ، ثم نسى غضبه ونسى كل شىء وأصبح لا يفكر إلا فى الانتقام لصاحبه ، ويصف لنا الشاعر فى الأناشيد الباقية كيف انتفض أخيليوس ، وانقض يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة ، وكيف استخف بالأهوال وأقسم أن يفجع طروادة فى هكتور ، بطلها المغوار فانطلق فى ساحة القتال يبحث عنه حتى التقى به ، وظل يطارده أينما ولى وجهه ، ولما تعب هكتور ونال منه الجهد ، وقف للقاء أخيليوس ، ولم تنقض لحظات حتى انقض بطل اليونان عليه وعاجله بطعنة من رمحه هوت به إلى الأرض ذبيحا ميتاً . وبعد أن انتقم أخيليوس لصاحبه ، جمع القوم وأمرهم بإعداد كومة لحرقه وتأدية الشعائر الدينية التى لا يتم الجناز إلا بها ، ثم عاد إلى جثة هكتور وانقض عليها كالمجنون وربطها فى عربة ، وأخذ يلف بها حول الكومة التى حرق فيها صاحبه . فثار الآلهة لما يحل بالميت المسكين من هوان ، وغضب زيوس فأرسل إلى أخيليوس يأمره بتسليم جثة هكتور إلى أبيه برياموس . ويذهب هذا الشيخ المكلوم إلى معسكر اليونان ويسعى إلى خيمة البطل الذى يكرم وفادته ويأمر بغسل جثة هكتور ولفها فى أكفان من كتان مصر وتسليمها إلى أبيه . ثم يعود برياموس إلى طروادة ويأمر بعمل كومة لحرق

الجثة ويقيم لها الطقوس الدينية وسط نحيب الطروادیات وعويلهن . وهكذا تنتهى الملحمة بوصف بليغ لهذا المنظر الحزين .

هذا ملخص للإلياذة التى كانت ومازالت تعد أهم ملحمة فى الأدب الغربى ، قديمه وحديثه ، يرجع إليها الأدباء والعلماء يتلونها مرة بعد أخرى ، ويجمعون على أنهم لا يضيقون بها مطلقا ، وأنهم إذا تركوها فترة ، أحسوا شوقاً عجيباً إليها ، فيعودون إليها ، ويشعرون أن أوصافها مازالت ساحرة وأن لوحاتها ما زالت رائعة .

عظمة الالياذة

وكيف لا تكون هذه الدرة ساحرة رائعة ؟ إنها تفيض بألوان من التنوع : تنوع فى المناظر ، وتنوع فى الوصف ، تنوع فى العواطف ، وتنوع فى الأسلوب وتتصف ، رغم طولها الشديد ، بتماسك الأجزاء وتسلسل الحوادث ، مما يدل على وحدة الموضوع فى ذهن الشاعر ، ووضوح الفكرة التى لا يشوبها غموض ولا اضطراب .

لقد طبعها هوميروس بطابع من الفخامة لأنه كان يضع نصب عينيه المثل الأعلى فى كل مايصف من مناظر وأشخاص ، وكل مايصور من أحداث ومغامرات وكل ما يروى من قصص وأساطير ، ومع أنه كان يرمى إلى بلوغ هذا المثل فإنه كان لا يبعد عن دنيا الواقع فمعاركه الدامية ليست معاوك عمالقة أو شياطين ، وأبطاله ليسوا مردة خرافيين ، ولكنهم جنود بواسل وفرسان شجعان لا يتكلفون فى مواقفهم ولا يتصنعون فى تصرفاتهم يشعرون بقوتهم ويعترفون بضعفهم الذى حاطهم به الإله ليجعلهم فى مستوى الناس أجمعين ، ويرفعهم أحياناً إلى أعلى السمو وينزل بهم أحياناً إلى أسفل سافلين

ولقد خلع هوميروس على الآلهة أنفسهم صفات البشر ، فمع انهم خالدون أبداً فإنهم يشبهون الناس جميعاً ، يكثرون فى الطعام ويسرفون فى الشراب ، قساة غلاظ القلب لا يحترمون المبادئ الخلقية ، ولا يتمسكون بالفضائل ، يسود بينهم الخصام وينقسمون إلى أحزاب ومعسكرات ، يتصفون بالمكر والخداع ، منهم القوى الذى يبطش والضعيف الذى يرتجف ، ومنهم الشجاع الباسل والجبان الرعديد ، لا يجلون زيوس ولكن يخافون بأسه . وهكذا لم يصورهم هوميروس كما يصورهم أسلافه ، فلم يؤمن بما كان ينسج حولهم من أساطير أو بما ينسب إليهم من معجزات أو بما يقام لهم من عبادات ، ولذا خلت أشعاره من النظريات الدينية .

وعلى ذلك لم يحلق هوميروس فى دنيا الخيال بل عاش مع الناس وصور حياتهم وجعل الإنسان محوراً لأشعاره يقوم فيها بالدور الأول ، فيتصل بكل شئ ويتأثر به أو يؤثر فيه . فحتى فى المعارك الدامية التى يخوضها الآلهة مع الأبطال لا ينسى الشاعر الرجل العادى ولا يهمله ، فيشاركه عواطفه ويرثى لضعفه ويثور معه ضد القوى الجبار ، فيبكى فرحاً مع أطفال شفى أبوهم من مرض عضال ، ويشارك الفلاح سروره عندما يرى أغصان الزيتون مزهرة[1] ، ويتألم لجوع العامل الذى يكد طول النهار[2] ، ويشعر بتعب الملاح الذى أنهكه التجديف[3] ، ويرثى لحال المرأة التى تكافح لتكسب قوتها[4] ، ويحزن مع الشيخ الذى مات أبناؤه فى ساحة الوغى[5] ، ويحسد الأغنياء المترفين الذين يملكون مزارع القمح الواسعة ، ويعجب من أصحاب الثروات الضخمة والضيعات الشاسعة ، وينفر من جشعهم وقسوتهم نحو العامل الفقير والأجير المعدم ويشبههم بالحيتان

---

(١) الإلياذة ، ١٧٢ ، ٥٣ .
(٢) الإلياذة ، ٢٣ ، ٢٣٣ .
(٣) الإلياذة ، ١٥ ، ٦٢٤ .
(٤) الإلياذة ، ١١ ، ٨٦ .
(٥) الإلياذة ، ١١ ، ٨٦ .

الضخمة التى تبلع صغار الأسماك والنسور الجارحة التى تنقض على مستضعف الطير [1] .

ولقد امتازت الإلياذة ، فوق ذلك ، بوضوح الأسلوب الذى امتدحه علماء البلاغة واعتبروه أول سبب لتفوق هوميروس الأدبى ؛ فهو فى رأيهم أعظم كتاب اليونان وأوضحهم أسلوباً ، ويعزى وضوحه إلى عنايته بترتيب الأفكار ونقاء التعبير واختيار أسهل الألفاظ وأدقها وأكثرها انتشاراً وأحسنها وقعاً على النفس وأعذبها نغماً فى الأذن . ومع أن الوضوح فى رأى بعض النقاد قد يبعث الملل أو يقلل من أهمية الموضوع أو يؤدى إلى سطحية الفكرة ، فإن شاعرنا ، استطاع ، بفضل عبقريته ، تجنب هذه العيوب بأن نوع فى أسلوبه ؛ فكان مرة يركن إلى الإيجاز فى الشرح ويختصر فى التفاصيل ، ومرة يسهب فى الوصف ويبلغ حد الكمال . وكان لا يهتم بالزخرف اللغوى ولا يميل إلى المحسنات اللفظية ، بل كان يتعمد فى تشويق سامعيه على روعة الحوادث التى يعرضها ، والأحاديث التى يرويها والخطب التى يستخدمها القواد لحث الجنود فى ساحة القتال [2] ، ويلجأ إليها الزعماء لمناقشة المسائل السياسية [3] ، ويستعين بها الرسل فى أداء مهمتهم . وكان هوميروس يحب التكرار ويعتمد عليه فى الاستيلاء على انتباه الجمهور ، ولقد بلغ مجموع الأبيات المكررة من الإلياذة ثلث طولها ، ومع ذلك فإننا لم نسمع عن ناقد قديم أو حديث ضاق بهذا التكرار ، بل لقد اعتبره أرسطو ظاهرة طبيعية لم تفقد الأسلوب شيئاً من جماله ولم تبعث الملل لأن الشاعر كان بارعاً فى تهيئة النفوس وتمهيد الجو لسماع ما يردده .

ولكن الإلياذة تمتاز أولا وقبل كل شئ بدقة الوصف وبراعة التصوير ، فما من نشيد فيها إلا وقد احتوى على مقطوعات تصف الطبيعة أو لوحات فنية تصور مظاهرها أو أوصاف مفصلة لبعض الأدوات الحربية ، ولقد أظهر هوميروس مقدرة فائقة فى وصف كل ما رأى وسمع لأنه كان قوى الملاحظة محباً للاستطلاع ، فوصف الجروح وآلامها وطريقة معالجتها ، وتكلم فى المعارك الحربية وقيادة الجيوش [1] ، وصور الحدائق والبساتين ، تحدث عن كل ذلك حديث خبير ماهر ، ووصفه وصف عالم دقيق حتى قال بعض النقاد عنه « إنه كان جراحاً » وقال آخرون « إنه كان قائداً » وقال غيرهم « إنه كان فناناً أو عالماً ، ولكنه كان فى الواقع جراحاً وقائداً وفناناً وعالماً لأنه كان شاعراً ينطق عن موهبة قدسية أتته من لدن الآلهة » [2] .

نماذج من الإلياذة

رجل من عامة الشعب يهاجم أجا ممنون ملك الملوك [3] :

« ما شكواك يا ابن أتريوس ؟ وما تريد ؟ إن سفائنك مملوءة بالمال والعتاد ، مملوءة بالغنيد الحسان اللاتى نقدمهن لك عند ما تستولى على مدينة من المدن ؛ أأنت فى حاجة إلى مزيد من الذهب يحمله إليك أحد الطروادين فداء لابنه ؟ أم تريد فتاة جميلة تحتفظ بها لنفسك ؟ إنه لا يليق بزعيم الآخيين أن يدفع بهم إلى البؤس والشقاء . وأنتم أيها الآخيون ! أى خزى تجلبون على أنفسكم ! لقد أصبحتم لا تستحقون اسمكم ، فلنعد إلى بلادنا ونترك ذلك الرجل هنا يذوق ثمرة تصرفاته ويشعر بحاجته إلينا .

---

(١) الإلياذة ، ٨ ، ٥٧٩ — ٥٨١ .
(٢) الإلياذة ، ٢ ، ٢١١ ، ٦ ، ٦٦٨ .
(٣) الإلياذة ، ١ ، ٢٤٧ .

(١) الإلياذة ، ١١ ، ٦٣٩ ؛ ١٢ ، ٢٠٠ .
(٢) أفلاطون ، محاورة إيون أو عن الإلياذة ، ٥٣٥ أ — ٥٣٧ ه (ترجمة صقر خفاجه ، مقدمة سهير القلماوى) .
(٣) الإلياذة ، ٢ ، ٢٥٥ وما بعده .

لقـــد أهان أخيليوس الذى يفضله ويمتاز عليه ، فاغتصب حبيبته واحتفظ بها لنفسه » .

* * *

وقد يذهب لاسترضاء أخيليوس[1] :

« سلام عليك ، أخيليوس ! إن مصيبة فادحة تشغل بالنا وتثير مخاوفنا ، إننا لا نعلم إذا كنا سننقذ السفن أو سنفقدها ، لقد أقام الأعداء بالقرب منها معسكراً لهم ولحلفائهم. وهكتور يختال بقوته ويعصف بجنودنا ، لا يحترم الآلهة ولا البشر ، لقد استولى عليه غضب شديد ، وقرر أن يشعل النار فى السفن ، ويجندل رجالنا أجمعين وكل ما أخشاه أن يحقق الأرباب رغبته ، فيكتبوا علينا الموت بعيـــداً عن ديارنا . فهيا إذا كنت تريد أن تنقـــذ اليونان من مصيبتهم ، وإذا توانيت فسوف تعانى أنت نتائجها ، لأن الشر إذا وقع ، لن تجد لك منه مخرجاً ، فأسرع وفكر فى إنقاذ اليونان من بلواهم .

هدئ من ثورتك ، واترك الغضب جانباً . إن أجاممنون يقدم إليك أنفس الهدايا إذا تخليت عن مقتك وغضبك ، ولكن إذا كنت لا تزال تبغضه وتبغض هداياه ، فلتأخذك الشفقـــة بغيره من اليونان الذين أنهكتهم الحرب ، إنهم يجلونك كما يجلون الآلهة ، وسوف تبلغ بينهم قمة المجد »

فأجاب أخيليوس قائلا :

« أى أودوسيوس ، يا صاحب الحيل ! يجب أن أصارحك بما أريد وبما سيحدث فعلا حتى لا تعود إلىّ وتضايقنى ، إنى أكره من يخفى فى نفسه شيئاً ويقول شيئاً آخر ، لذا سأبوح لك بما سوف أفعل . فلا أجاممنون ولا غيره من اليونان يستطيعون إقناعى لأنهم تنكروا لى رغم الجهد المضنى الذى بذلته فى محاربة العدو . فالجزاء واحد سواء بقينا فى خيامنا أم قاتلنا قتال الجبابرة ، إنهم يمجدون الجبان كما يمجدون الشجاع ، ولم يبق لى شئ مطلقاً بعد الأخطار التى واجهتها والمعارك العديدة التى خضتها . كنت أقضى الليالى دون أن أذوق للنوم طعما وأقضى الأيام دون أن أعرف للراحة معنى ، أما أجا ممنون فكان يبقى فى المؤخرة بالقرب من السفن : ينتظر الغنائم ، فيوزع منها القليل ويحتفظ لنفسه بالكثير ، فقولوا له كل ما سمعتموه منى ، وحدثوه بذلك على رءوس الأشهاد حتى يغضب اليونان كما غضبت . فلن أتفاوض معه ولن أقاتل فى صفوفه . لقد سخر منى وأساء إلىّ ولكنه لن يخدعنى أبداً . فليذهب إلى حتفه بظلفه لأن زيوس حرمه نور الحكمة والرشاد » .

* * *

مناجاة بين أندروماخا الوفية وزوجها الحبيب هكتور[1]

هكتور ، أيها المسكين ، إن حماستك ستدفعك إلى الهلاك . ما أشقانى ! ألا ترحمنى وترحم طفلك الصغير ! إننى سأترمل عما قريب ، فعما قريب سيقتلك اليونان ، ولكننى أتمنى أن أموت حتى لا أعيش وحدى لأننى لن أسعد من بعدك ولن أعرف إلا الأحزان والهموم . لقد فقدت أبى وأمى وكل إخوتى . فأنت ، يا هكتور ، أبى وأمى ، وأنت أخى وأنت زوجى ، فابق هنا وارحمنى » .

فرد عليها هكتور العظيم قائلا : « إننى مهموم لذلك ، ولكننى أخاف الطروادين والطروادیات إذا هربت كالجبان من المعركة . هـــذا إلى أن قلبى لا يدفعنى إلى الفرار لأننى تعلمت أن أكون شجاعاً على الدوام وأن أقاتل فى طليعة الطروادين لأذود عن مجد أبى وأشيد مجدى ، إننى أعلم وأحس فى نفسى وفى قلبى بأنه سيأتى يوم تدمر فيه طروادة المقدسة ،

(١) الإلياذة ، ٩ ، ٢٢٥ وما بعده .

(١) الإلياذة ، ٦ ، ٤٢٠ وما بعده .

ويهلك پرياموس ويفنى شعبه . ولكننى لا أفكر إلا فى المستقبل ولا أشغل بالى بهموم الطروادين وأحزان أمى وأبى وإخوتى بقدر ما أغتم لمصيرك المؤلم عنـــدما يأسرك أحدالأعداء فيأخذك معه وأنت تبكين وتنوحين . وهناك فى بلاد اليونان تعيشين تحت امرته تغزلين وتحملين الماء . وعندما يراك الناس والدمع ينهار من عينيك يقولون هاهى ذى زوجة هكتور بطل الطروادين فى المعركة ، يقولون هذا فتتجدد أحزانك لحاجتك إلى رجل مثلى ينقذك من العبودية ويرد إليك حريتك فليتنى أموت أو أدفن حيا . فهذا أحب إلى من أن أراك باكية مستعبدة .

ثم يأخذ ابنه بين ذراعيه ويضمـــه إلى صدره ويدعو الآلهة أن ترعاه ، فيقول :

« أى زيوس ، أى أرباب السماء ! حققوا رجائى ! ليت ابنى يشتهر بين الطروادين مثلى ! ليته يكون قوياً عزيز الجانب ، يحكم حكماً وطيداً ليتهم يوماً يقولون عنه ، وهو راجع من ساحة الوغى ، إنه أعظم من أبيه وليته يعود بأسلاب أعدائه تقطر منها الدماء ، فيسعد أمه ويشرح صدرها :

ثم يضع الطفل بين ذراعى أمه ويلاطفها قائلا :

« لا تحزنى من أجلى ! فلن يسوقنى إلى الموت رجل قط إذا لم تشأ الأقدار ، لكن إذا حم القضاء ، فلا مفر منه ، اذهبى إذن إلى المنزل وانصرفى إلى شئونك » .

ولا يسعنا ، فى نهاية هذا البحث ، إلا القول بأن هؤلاء انتقاد كانوا على حق فيما ذهبوا إليه . ودليلنا على ذلك أن جميع شعراء الملاحم الذين ظهروا على مر العصور لم ينظموا ملحمة واحدة بلغت بعض ما بلغته الإلياذة من عظمة وشهـــرة . ذلك لأن هوميروس نظم أشعاره بعد أن ضرب فى ربوع البلاد ، واختلط بعامة الناس وخاصتهم ، واستمع إلى أغانيهم ، وحضر مجالسهم ، وحفظ رواياتهم ، وسجـــل أخبارهم ، فجاءت ملحمته شاملة جامعة يحبـــون سماعها ويرددون أناشيدها لأنها تتجاوب مع مشاعرهم وترتبط بهم أشد ارتباط ، أما غيره من الشعراء فقد عاشوا فى المكتبات ، ونظموا ملاحمهم بين أكداس الكتب والمجلدات ، فملئوها بمختلف النظريات وشتى الموضوعات التى تخص فئة قليلة من الناس ، فلم يكتب لأشعارهم الذيوع والانتشار ، وكان مصيرهم النسيان ومصير هوميروس الخلود مع الزمان .